دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

الروح القدس
في
الاستشهاد والرهبنة

الأب متى المسكين

كتاب: الروح القدس في الاستشهاد والرهبنة .
المؤلف: الأب متى المسكين.
الطبعة الأولي: ضمن كتاب :"الروح القدس الرب المحيي".
الطبعة الثانية: ٢٠٠٢.
الطبعة الثالثة: ٢٠١٥.
مطبعة دير القديس أنبا مقار – وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٠٩٨٣ / ٢٠٠٢
رقم الإيداع الدولي: ISNB 977-240-136-3
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

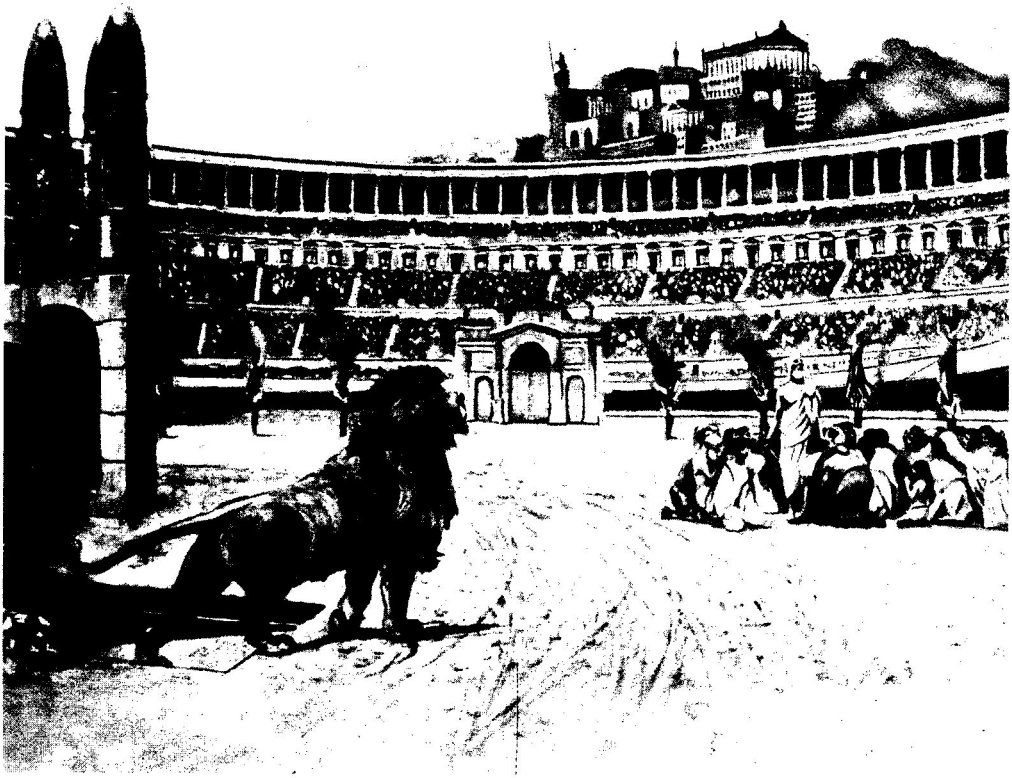

مجموعة من الشهداء المسيحيين الأوائل
يستعدون للاستشهاد بالصلاة،
ووسطهم راعيهم الشيخ يشجّعهم ويثبّتهم

بمناسبة عيد استشهاد الرسولَيْن بطرس وبولس:

الروح القدس والاستشهاد[1]

اليوم تعيِّد الكنيسة لتذكار شهادة القديسَيْن بطرس وبولس.
هذه الشهادة هي ثمرة مباشرة لحلول الروح القدس يوم الخمسين.

تذكرون قول الرب الذي سجَّله لنا لوقا الإنجيلي في سفر الأعمال:
+ «لكنكم ستنالون **قوة** متى **حلَّ** الروح القدس عليكم، **وتكونون لي شهوداً في أورشليم** وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع ١:٨)

إذن، هذا العيد أو هذه الشهادة التي ختمها الرسولان بطرس وبولس بالدم، هي تحقيقٌ مباشر لوعد الرب، وبرهانٌ لعمل الروح القدس.

معروف أنه يستحيل على أي إنسان أن يقول ـ مجرد قول ـ إن المسيح رب إلاَّ بالروح القدس، فكم بالحري تتطلب الشهادة للمسيح باستعداد سفك الدم؟ يلزمنا هنا أن نتأمل طويلاً في معنى الاستشهاد.

معنى الاستشهاد:

قد يبدو الاستشهاد بسفك الدم على اسم المسيح عملاً من أعمال

---

(١) نص الكلمة التي أُلقيت بكنيسة القديس العظيم أنبا مقار الكبير بديره العامر ببرية شيهيت، يوم عيد آبائنا الرسل الأطهار الموافق ١٢ يوليو ١٩٧٣م / ٥ أبيب ١٦٨٩ش.

الشجاعة أو البطولة أو مجرد قوة إيمان، ولكنه في الحقيقة عمل من أعمال الروح القدس المباشرة التي يطبعها في الإنسان على أساس أنه ينقل للإنسان الذي يؤمن بالمسيح صفة من صفات المسيح التي هي "وَضْع الذات" أو بذلها للموت: «لي سلطان أن أضعها» (يو ١٠:١٨). فالمسيح وضع ذاته وأطاع الآب حتى الموت، موت الصليب (في ٢:٨).

دور الروح القدس في الاستشهاد:

وظيفة الروح القدس الأساسية فينا هي أن ينقل لنا كل ما للمسيح، وضمناً هذا السلطان عينه أي سلطان المسيح على ذاته: «لي سلطان أن أضعها». فكما وَضَعَ المسيح ذاته على الصليب وأطاع الآب حتى الموت، وبذلك أصبح موت المسيح هو بحدِّ ذاته طاعة للآب، وبالتالي صورة وشهادة لتمجيد الآب؛ هكذا تماماً ينقل لنا الروح القدس هذه الصفة الأساسية التي كانت للمسيح، وهي سلطان وَضْع الذات وبذلها للموت طاعة وشهادة لمجد المسيح والآب.

والمسيح لما وضع ذاته وأسلم نفسه للموت طاعة للآب، لم يكن يطلب بالصليب مجد نفسه بل مجد الآب، لأن الصليب بحد ذاته إخلاء وفضيحة ومهانة، بل ولعنة في أشد حالاتها.

مثال إخلاء المسيح ذاته:

ولكن الذي ينبغي أن ننتبه إليه جيداً هو أن وضع الذات وبذلها بالصليب، لم يأتِ فجأة في حياة المسيح، فقَبْل إخلاء الذات من الكرامة البشرية وقبول فضيحة الصليب سبق أن أخلى المسيح ذاته من مجد الألوهة عندما قَبِلَ أن يتجسَّد في صورة إنسان كعبد من عبيد الله!

إذن، الإخلاء تمَّ على مستويين في المسيح:

الأول: سرِّي داخلي وخاص جداً على مستوى الله.

الثاني: علني وعمومي وعلى مستوى الناس بالصليب.

هكذا تماماً في موهبة الاستشهاد العلني بالنسبة لنا، لا يمكن أن نتهيَّأ لها فجأة وبدون مسبقات، بل يلزم بالضرورة أن يكون الروح القدس قد جاز بالإنسان إخلاءً سريًّا داخلياً في أعماق الحياة مع الله، إخلاءً يبلغ فيه الإنسان أولاً إلى رفض كل مجد وكرامة تكون من اختصاص الإلهيات والمقدسات التي نسميها اليوم كرامة الكهنوت أو القديسين، حيث يعيش المؤمن بإحساس العبد المرفوض والمتألِّم أي نفس الإحساس الذي عاشه المسيح:

+ «هوذا عبدي يعقل، يتعالى ويرتقي ويتسامى جداً، كما اندهش منك كثيرون. كان منظره كذا مُفْسَداً أكثر من الرجل، وصورته أكثر من بني آدم... لا صورة له ولا جمال فننظر إليه، ولا منظر فنشتهيه. محتقر ومخذول من الناس، رجل أوجاع ومُختَبِر الحزن، وكمُستَّر عنه وجوهنا ("يخفون وجوههم عنه")، محتقر فلم نعتدَّ به... ونحن حسبناه مُصاباً مضروباً من الله ومذلولاً!... ظُلِمَ أما هو فتذلَّل ولم يفتح فاه.» (إش ٥٢:١٣و١٤ـ٥٣:٢و٣و٤و٧)

هنا، وعلى هذه الحال من الرفض والمهانة، وبهذا الإخلاء الداخلي أمام الله وكما من الله، يمكن أن يأتي إخلاء الذات على الصليب، ويحتمل الإنسان عار الموت العلني وفضيحة التعذيب حتى الموت حيث

تغذّي الشهادةُ الداخلية الشهادةَ الخارجية.

ولكن الصليب لا يمكن أن يتركّب على كرامة. الشهادة للمسيح من خلال الفضيحة والتعذيب وسفك الدم يستحيل أن يقبلها إنسان متمسِّك بذاته وكرامته.

سرُّ احتمال الصليب وقبوله بفرح، يكمن في الحياة التي تسبقه. الشهادة للمسيح بسفك الدم تتجمع قوتها وإمكانياتها من اتضاع الحياة السابقة. فموت الذات بسفك الدم يلزم أن يسبقه إنكار الذات بالخضوع لكل تأديبات الله.

عمل الروح القدس في الاستشهاد:

حينما ينقل لنا الروح القدس قوة عمل المسيح في الإخلاء، الذي هو تمهيد للصليب، ثم في إنكار الذات وبذلها حتى الموت بسفك الدم الفعلي على الصليب؛ فإنه ينقلها إلينا ويغرسها في طبيعتنا الجديدة، لا كأنها أعمال غريبة عن الروح القدس، بل هي كعمل من صميم اختصاص الروح القدس، ومناسِبة أشد المناسبة لصفاته الخصوصية!! فالروح القدس يعمل فينا وهو في حالة إخلاء لذاته أيضاً، بل وإنكار لذاته على أعلى مستوى. فالمسيح يصف عمله لنا وفينا هكذا:

+ «**لأنه لا يتكلَّم من نفسه**، بل كل ما يسمع يتكلَّم به... **ذاك يُمجِّدني، لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم.**» (يو ١٦: ١٣و١٤)

ويمكن تشبيه الروح القدس بالتلسكوب الذي يكشف لنا أسرار السماء ويُقنعنا بحقيقتها دون أن يكشف نفسه هو. فعندما نضع عيننا

على التلسكوب، نرى السماء في الحال بكل وضوح وجمال ومجد، دون أن تقع عيننا على شيء من تركيب التلسكوب، أو يتدخل التلسكوب في إضافة أو حذف أي شيء من حقيقة النجم الذي نرصده؛ بل ونقتنع أن عيننا هي التي ترى مباشرة كل مجد السماء، إذ لا ترى أي أثر لهذا الوسيط الذي يتوسَّط بين عيننا وبين السماء!! حيث ينحصر عمل التلسكوب في أنه يكشف مجد السماء لعين الإنسان وحسب!!

الروح القدس يعمل هكذا: يمجِّد المسيح دون أن يتمجَّد هو، لأنه يُخلي ذاته: «لا يتكلَّم من نفسه»، «ذاك يُمجِّدني، لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم».

الروح القدس يعمل فينا من خلال إخلاء ذواتنا:

حالة الإخلاء الكلِّي التي يعمل من خلالها الروح القدس فينا، والتي هي من صميم صفاته الأقنومية، تؤثِّر فينا تأثيراً مباشراً ومُشابهاً، فتلغي إحساسنا البشري وتتجاوز منطقنا العقلي، لنرى المسيح في حقيقة ذاته الإلهية، وبالتالي تنكشف لنا آلامه الخلاصية على الصليب في صميم دوافعها الإلهية الكريمة والمجيدة، فنتحقَّق فيها من أمرين خطيرين للغاية:

الأول: حب الآب لنا في بذل ابنه.

والثاني: حب الابن للآب ولنا في طاعته حتى الموت من أجلنا!!

هذا يكشف لنا أهمية الصفة العجيبة التي هي "**الإخلاء**": «لا يتكلَّم من نفسه. ذاك يُمجِّدني»، التي يُباشِر بها الروح القدس عمله فينا للرؤيا الإلهية الصافية، ولمعرفة الحق الإلهي الخالص لشخص يسوع

المسيح والآب؛ إذ أن هذه الصفة ليست في الواقع لازمة للروح القدس في ذاته بقدر ما هي لازمة لنا في ذواتنا لإمكانية الرؤيا الصافية ومعرفة الحق الخالص من شوائب الفكر والمنطق البشري. فالإخلاء من الذات ومن المنطق البشري والقياسات العقلية لازمٌ لنا أشد اللزوم حتى نستطيع أن نرى الإلهيات في عمل المسيح، ونُصدِّق الحق في كلمة الله، ونفهم منطق الله في الصليب، ونقبل مواهب الله الفائقة المجانية التي بلا حساب وبلا كيل، والتي حصل عليها المسيح لنا من الله الآب بدمه!

أما بدون الروح القدس فلا يمكن أن نرى المسيح إلاَّ «رجل أوجاع ومختبر الحزن... مضروباً من الله ومذلولاً»، ولا نرى الصليب إلاَّ "جهالة" و"عاراً" و"لعنة"! لأننا نرى ذلك من خلال إحساسنا بذاتنا وخضوعنا لمنطقنا العقلي. أما بتوسُّط الروح القدس أو بالحري من خلال الملء بالروح القدس، فنحن نرى المسيح (مع استفانوس الشهيد) جالساً عن يمين الآب في السموات، كما نرى الصليب (مع بولس الرسول) قوة الله للخلاص، الذي به استُعلِن مجد المسيح والآب! أي أن الروح القدس يُعطينا أن نرى المسيح ونفهم عمله بصورة من المجد حتى على الصليب لا يمكن أن تُرَى بالعين البشرية أو تُفهَم بالعقل البشري.

الروح القدس يكشف لنا حقيقة صليب المسيح:

ولكن تشبيهنا لعمل الروح القدس فينا بالتلسكوب، يظل بعد كل هذا تشبيهاً ناقصاً، لأن التلسكوب بالرغم من أنه يُرينا الشيء بصورة واضحة جداً ومُمجَّدة جداً، إلاَّ أن هذا الشيء يظل ببعده عنا كما هو،

فيوهمنا أننا على بُعد خطوة من الشيء مع أننا نكون على بعد مئات الأميال. ولكن الروح القدس لا يُرينا المسيح من على بُعد، ولا يكشف لنا حقيقة الصليب كعمل آخر خارج عنا. الروح القدس ينقلنا عَبْرَ نفسه إلى المسيح، وينقل المسيح إلينا عَبْرَ نفسه أيضاً؛ فيصير أو يحلّ المسيح في قلبنا بالروح القدس، ونصير نحن في قلب المسيح بالروح القدس أيضاً.

الروح القدس يلغي كل ما يفصلنا عن المسيح:

الروح القدس يختزل ـ بإخلائه الفعلي لذاته وبطبيعته القدوسة ـ المسافة الروحية مع كل الأجواء المعاكسة التي تفصلنا عن قداسة المسيح. أو على وجه أصح يلغيها تماماً بإخلائه العملي لذاته وبقوة قداسته الفائقة، فلا يعود شيء قط يفصلنا عن المسيح، ولا خطيئة ولا عجز ولا موت ولا أية قوة مُعاكسة شريرة أيًّا كانت. بل إن الروح القدس يصنع من ذاته عملاً خِلْقياً جديداً فينا (خليقة جديدة من ذاته)، يجعلنا به مؤهَّلين في الحال للاتحاد بالمسيح؛ فيصير موت المسيح موتنا، وقيامته قيامتنا، وحياته حياتنا، وجلوسه عن يمين الآب جلوساً لنا، ومجده أيضاً مجدنا!! ننظر إليه فنرى أنفسنا، ونعرفه فنعرف أنفسنا، لأننا بواسطة الروح القدس نتحقق أننا "من لحمه ومن عظامه"، وأن "المسيح نفسه يحيا فينا".

الروح القدس يختزل كل حاجز يفصلنا عن المسيح، ويلغي كل ما يعوق الاتحاد، سواء كان هذا العائق زمنياً أو مكانياً أو كيانياً أو خلقياً أو نفسياً أو عقلياً من أي نوع. ففي ملء الروح القدس أرى نفسي

في الحال ـ بكل ثقة وبلا حاجة إلى أي تفكير أو برهان ـ أني مع المسيح صُلِبتُ، ومع المسيح قمتُ، ومع المسيح أجلس في السماويات!! لا كأني أحصل على هذا ببرِّي أو بطهارة يدي أو قلبي، ولكني أحصل على كل ما حصل عليه المسيح لأجلي بتوسُّط الروح القدس الذي يلغي أي عائق ويتجاوز أية حاجة إلى برهان أو منطق! إنها رؤيا من خلال الروح القدس مُفرحة، وواقع مُشْبِع معاً؛ هبة وحق معاً، حياة وشهادة معاً، خبر وإيمان معاً!

استشهاد الرسولَيْن فعل من أفعال الامتلاء بالروح القدس:

إذن، ما هو استشهاد الرسولَيْن بطرس وبولس في هذا اليوم المبارك، إلاَّ فعل من أفعال الامتلاء من الروح القدس، الذي أكمل فيهما عملاً من أعمال طبيعته الفائقة وهو الإخلاء لحساب مجد المسيح؟! هذا الذي جعل هذين الرسولين الكريمين يقبلان سفك الدم باعتبار أنه أعلى حالات الإخلاء أو إنكار الذات كشهادة لمجد المسيح على مستوى صليب الرب الذي بذل عليه نفسه لمجد الآب!! الروح القدس كان يشهد فيهما بإلحاح ـ منذ يوم الخمسين ـ لموت الرب المحيي، وكانا هما يشهدان أيضاً وباستمرار. لذلك جاء سفك دمهما ختماً صادقاً لشهادة الروح القدس فيهما، وشهادتهما بالروح القدس لمجد المسيح الحيّ حسب وعده!!

كيف نُعيِّد روحياً لتذكار سفك دم الرسولين بطرس وبولس:

الحقيقة أن صوم الرسل بأكمله يُعتبر عيداً متصلاً لعمل الروح القدس في الكنيسة، فهو عيد الخدمة والصلاة المتواترة من أجل إرسال الفَعَلَة إلى

الحصاد، وتكريس الكهنة الذين وعد بهم الرب قديماً على لسان النبي إرميا في العهد القديم قائلاً: «وأُعطيكم رعاة حسب قلبي، فيرعونكم بالمعرفة والفهم.» (إر ٣:١٥)

أما سفك دم القديسين بطرس وبولس على اسم المسيح في هذا اليوم، وبعد خدمة طويلة مثمرة للغاية، فهو تمجيدٌ قدَّمته الكنيسة لشخص الرب. فكما كان سفك دم المسيح على الصليب أول تمجيد للآب تمّ على الأرض بشهادة الطاعة المطلقة والحب الأمين حتى الموت؛ هكذا قدَّم الرسولان بطرس وبولس شهادتهما للمسيح في ملء طاعة الروح القدس الناطق فيهما لحب المسيح ومجده، فتمَّ فيهما وبهما وعد الرب القائل: «روح الحق، الذي من عند الآب ينبثق، فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً.» (يو ١٥:٢٦و٢٧)

وينبغي أن ندرك أن سفك دم الرسولين العظيمين بطرس وبولس معاً وفي يوم واحد، هو أعلى ذوكصولوجية حب قدمتها الكنيسة لشخص المسيح، لا على مستوى اللحن والترتيل، كما يفعل المحترفون في هذه الأيام؛ ولكن على مستوى إنكار الذات وبُغضة النفس وقبول حكم الموت والرفض والتعذيب والقطع من أرض الأحياء، بلا خوف أو انزعاج أو ندم أو نظر إلى الوراء!

المسيح، اليوم، وفي ذكرى استشهاد الرسولين بطرس وبولس، طالِبٌ مثل هذه الذوكصولوجية الصادقة الأمينة باستعداد صبغة الدم. الرب يطلب لحن إنكار الذات بإحساس الصليب، بموت المشيئة، بنية رفض كل حياة لمجد الناس والجسد.

فمَن ذا الذي يُعيِّد اليوم بالروح القدس لموت بطرس وبولس على اسم المسيح؛ إلاَّ الذين لم يحبوا حياتهم حتى الموت؟! يعيشون سهارى متيقِّظين في كل لحظة كما كان بطرس الرسول على استعدادٍ لأية «**مِيتة كان مُزمعاً أن يُمجِّد الله بها.**» (يو ٢١: ١٩)

تمجيدنا لله يرتفع بقدر ارتفاع أنين آلامنا:

إذن، ومن قول الرب لبطرس الرسول يتضح جليًّا أن **تمجيد الله** يرتفع ليس بارتفاع طبقة اللحن من الحناجر المتقِنة للحفظ؛ بل بارتفاع أنين الألم والظلم وعنف الاضطهاد حتى الموت: «تمدُّ يديك وآخر يُمنطقك، ويحملك **حيث لا تشاء**. قال الرب هذا (لبطرس) مشيراً إلى أية مِيتة كان مُزمعاً أن **يُمجِّد الله بها.**» (يو ٢١: ١٨و١٩)

نعم، هذا هو لحن عيدنا اليوم، أيها الأحباء. وهذا هو تصميم تمجيدنا لله والمسيح، أن نكون في هذه اللحظة وكل لحظة آتية، باستعداد الشهادة للمسيح بملء الضمير، بكل إخلاص النية، بكل عزم، باستعداد إنكار الذات حتى الدم؛ هذا الذي لا يمكن أن نبلغه إلاَّ بملء الروح القدس. آمين.

الروح القدس والرهبنة

حياة القديس أنطونيوس امتداد لشعلة يوم الخمسين[٢]

✞●✞●✞

[ذلك الروح الناري العظيم الذي قبلته أنا، اقبلوه أنتم أيضاً. وإذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم، قدِّموا أولاً أتعاب الجسد، وتواضع القلب، وارفعوا أفكاركم إلى السماء، في الليل والنهار، واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري، وحينئذ يُعطَى لكم...

ولا تفكروا في قلوبكم وتكونوا ذوي قلبين، وتقولوا: مَن يقدر أن يقبل هذا؟ لا، يا أولادي، لا تَدَعوا هذه الأفكار تأتي على قلوبكم، بل اطلبوا باستقامة قلب، وأنتم تقبلونه، وأنا أبوكم أجتهد معكم، وأطلب لأجلكم، أن تقبلوه، لأني عارفٌ أنكم كاملون وقادرون على قبوله، لأن كل مَن يُفلِح ذاته بهذه الفلاحة (النسك الإنجيلي)، فإن الروح يُعطَى له، في كل جيل وإلى الأبد...

أديموا الطلبة باجتهاد، من كل قلوبكم، فإنه يُعطَى لكم، لأن ذلك الروح يسكن في القلوب المستقيمة. وإذا قبلتموه، فإنه يكشف لكم الأسرار العلوية، وأموراً أخرى لا أستطيع أن أُعبِّر عنها، ويكون لكم فرح سماوي ليلاً ونهاراً، وتكونون في هذا الجسد كمَن هو في الملكوت، ولا تعودون تطلبون عن أنفسكم فقط، بل وعن الآخرين، لأن كل مَن قَبِلَ هذا الروح، يستطيع أن يطلب عن الغير... وأنا طلبتي الآن من أجلكم ليلاً ونهاراً، ليكون فيكم هذا الروح العظيم الذي قَبِلَه جميع الأطهار.]

(الرسالة الثامنة)

+ «كانوا يواظبون بنفس واحدة على الصلاة والطلبة.» (أع ١: ١٤)

---

(٢) نص كلمة كُتبت في يناير عام ١٩٦٨م.

حادثان عظيمان في حياة الكنيسة

الأول: حلول الروح القدس يوم الخمسين على جماعة التلاميذ المنتظرين له، حسب وعد المسيح والآب.

الثاني: بداية الحياة الرهبانية في الكنيسة.

ولأول وهلة يبدو أنه لا علاقة كبيرة بينهما. ولكن لو رجعنا إلى العناصر والأسباب والنتائج التي لازمت كلاً منهما، نستطيع أن نستشف علاقة وثيقة بينهما. أما إذا تحقَّقنا هذه العلاقة تماماً، فإنه يمكننا أن نربط بين الحادثين، ربطاً مُحكماً، لنرى فيها حادثاً واحداً مستمراً.

أولاً: فحلول الروح القدس يوم الخمسين كان البداية التي قامت على أساسها قوة الشهادة للمسيح، من اليهودية إلى أقصى الأرض:

أما التأثير المباشر على المؤمنين فظهر على صورة تحوُّل جارف نحو تكوين حياة جماعية مشتركة للمؤمنين، على حساب تذويب الأسرة في الكنيسة، فجرت عمليات تنازُل علنية عن الممتلكات لرؤساء الجماعة ـ أي الرسل ـ وبجانبها تَمَّت عمليات بيع للمخصَّصات الفردية وتسليم أثمانها؛ وترتَّب على ذلك ـ أو ربما كان هذا هو الدافع ـ تكريس الحياة كلها لخدمة الكنيسة، في الداخل والخارج. وبهذا تشكَّلت صورة الكنيسة الأولى: جماعة مكرَّسين فقراء باختيارهم، يعيشون حياة شركة.

فلو تأملنا في هذا الذي تمَّ، لانذهلنا! كيف أمكن لهؤلاء اليهود

المحبين جداً للمال والملكية، مع حبهم الشديد للتجارة والمكسب والرصيد، أن يتنازلوا ويبيعوا، ويُسلِّموا كل ما لهم ويضعوه تحت أرجل الرسل، وفي لحظة يصيرون فقراءَ مُعدمين!؟

✠ كذلك لو تأملنا في تسليمهم لكيان الأسرة، لتذوب روابطها اليهودية، من جهة الأسباط وحفظ الأنساب وسلطان الأب وميراث البكر، لتدخل ضمن كيان الكنيسة تحت أُبوَّة جديدة ونسب جديد روحي يصير فيه الكل إخوة ويتحوَّل الميراث الأرضي والتخوم الأبوية إلى رجاء بغير المنظور؛ لو تأملنا في هذا كله، لتيقَّنا أنها قوة فائقة للطبيعة البشرية، تلك التي أرسلها المسيح بعد صعوده بعشرة أيام، في شخص الروح القدس: «... تنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم.» (أع ١:٨)

ماذا فعلت هذه القوة في الطبيعة البشرية؟

✠ وينبغي الآن أن نتبيَّن أن هذه القوة الروحية الجديدة التي تقبَّلها المؤمنون، كان أول عمل لها **تحويلاً جذرياً في الطبيعة البشرية**، في علاقتها بالمال والأسرة والكيان الاجتماعي بالنسبة للعمل الدنيوي. وأيَّ طبيعة؟ الطبيعة اليهودية العنيدة التي أخفقت كل وسائل الله في تهذيبها روحياً، سواء بالمحبة والعطف والحماية، مع فيض الخيرات الأرضية، أو بالمعجزات العيانية، أو بالقسوة والعنف والسبي والبهدلة؛ كل هذا لم يستطع أن ينتقل بالطبع اليهودي درجة واحدة ناحية السلوك الخالص.

هذا الطبع أُخضِع للروح القدس في لحظة، وصار مَثَلاً مُذهلاً

للتجرُّد والإماتة والزهد وتكريس الجسد والقلب والفكر لله.

الحياة الأولى في الكنيسة من فعل الروح القدس:

ولكن الذي نودُّ أن نتأمله جيداً هو شكل الكنيسة الأولى: إن هذا الذي حدث في يوم الخمسين وبعده كان استجابة حُرَّة مطلقة لفعل الروح القدس في القلب. الكنيسة بدأت شكلها بدون أي تنظيم أو تخطيط. الروح القدس كان يعمل أولاً في كل قلب، وكل مَن يتقبَّل عمل الروح، يذهب ويبيع كل شيء، حتى نفسه، ويأتي لينضم إلى الكنيسة. كان مفهوم العضوية في الكنيسة الأولى، أن يبيع الإنسان ممتلكاته وخصوصياته وأسرته أيضاً، لأنه إذا امتنع الأب أو الأُم أو الأخ أو الأخت أو الابن أو الابنة أن يقبل هذا الإيمان، فكان على الإنسان أن يتركهم ويترك كل شيء، ويأتي إلى الكنيسة بمفرده. الكنيسة هنا صارت بمثابة المسيح نفسه: «... ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (مت ١٩:٢٧)، لأن الروح القدس كان متركِّزاً بصورة سرِّية في وسط الجماعة.

كانت هذه الحركة الأولى التي باشرها الروح القدس بنفسه في قلب المؤمنين البسطاء، طبق الأصل من الحركة التي صنعها الرب يسوع في قلوب تلاميذه: هجرة كاملة للعالم، وترك كل شيء، والمسير وراء الله.

وهي صورة لِمَا سيكون في آخر الأيام:

غير أن الكنيسة لم تستطع أن تحتفظ بهذا الوضع الاجتماعي الاقتصادي الجديد. أما هذا الذي حدث أولاً، بتلقائية الروح والاستجابة له، فكان صورة فقط لِمَا سيكون في آخر الأيام، كعيِّنة مُفرحة للملكوت العتيد أن

يعيش فيه الإنسان، بالتجرُّد الكامل، تحت حُكم الله وتدبيره المطلق.

❖ ❖ ❖

ثانياً: الاستجابة لعمل الروح القدس ظهرت في حركة الاستشهاد:

ولكن، كان عزيزاً على الروح القدس أن تفقد الكنيسة صورتها الملكوتية هذه، وأن تضيع من قلب الإنسان هذه الاستجابة الحُرَّة لدعوة الملكوت بالتجرُّد الكامل وهجر العالم هُجراناً كليًّا، لأن هذه الصورة بحدِّ ذاتها تُعتبر من صميم عمل الروح القدس، وشهادةً للرب يسوع، وتحقيقاً متواصلاً للإنجيل. لذلك ظلَّ الروح يعمل في القلوب لتحقيق هذه الاستجابة نحو التجرُّد الكامل والإماتة الكلِّية وهُجران العالم، وإنما بصورة فردية وليست جماعية، على أنها لم تكن أقل قوة أو شهادة من الحركة الجماعية الأولى. فظهرت حالات الاستشهاد الرائعة التي عبَّرت أقوى تعبير عن استمرار قوة الروح القدس المنسكب في قلوب المؤمنين، وأفصحت عن قدرة التجرُّد والإماتة الكاملة في قلب الكنيسة في أعلى حدودها، كاستجابة واضحة لدعوة ترك كل شيء وغلبة العالم بالإيمان بغير المنظور.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: الاستجابة الجديدة لعمل الروح القدس ظهرت في قيام الرهبنة:

ولم تنتهِ حالات الاستشهاد، حتى بدأت استجابة جديدة لدعوة الروح القدس عينها بصورة أخرى، تكاد تكون طبق الأصل من الاستشهاد، إنما كممارسة يومية، وعلى مدى الحياة!! هذه الدعوة هي **الرهبنة** التي لا تزيد عن كونها ترك كل شيء، وحمل الصليب **كل يوم**. هذا إذا حاولنا أن نمجِّد الدعوة الرهبانية. ولكن لو أنصفنا،

لرأيناها استجابة، مجرد استجابة، لحرارة الإيمان البسيط الهادئ التي يُزكّيها الروح القدس بلهبه السري، فيترك الإنسان كل شيء وينطلق وحيداً، ليُحقق إيمانه ورجاءه وحبه مع الله.

وقد رأينا أن الإيمان الأول في الكنيسة بدأ بهذه الصورة عينها: تَرْك كل شيء، وبيع كل شيء، وهُجران كل شيء، حتى كل أفراد الأسرة؛ وذلك للانضمام إلى الكنيسة والتكريس لحسابها، أو على الأصح للسير وراء الله. ورأينا الاستشهاد أيضاً هكذا، إنما بصورة خاطفة.

الرهبنة امتدادٌ لحياة الرسل الأولى:

الرهبنة، إذن، امتداد للإيمان الأول بدون تعديل، فنحن نقرأ في سيرة القديس أنطونيوس هذا المعنى تماماً:

[وفي ذات يوم، ناجى أنطونيوس نفسه وهو ذاهبٌ إلى بيت الرب: كيف أن الرسل تركوا كل شيء وتبعوا المخلِّص! وكيف يذكر سفر الأعمال عن الذين باعوا ممتلكاتهم وأتوا بأثمانها ووضعوها عند أرجل الرسل]!!

فاللهب الذي اشتعل في قلب أنبا أنطونيوس، كان امتداداً للَّهب الكامن في قلب الكنيسة، الذي اشتعل فيها يوم الخمسين. فالرهبنة، أصلاً، فِعلٌ غير منطفئ للروح القدس، بدأ يوم الخمسين بهُجران العالم؛ فكوَّن الكنيسة الأولى، وتأجَّج في أزمنة الاستشهاد فشرح قوة إيمانها، ثم استقر في الحياة الرهبانية يُعزِّي قلب الكنيسة بحرارة الإيمان الأصيل، القائم على التجرُّد والهجران الكلِّي للعالم، فصارت الرهبنة كنبضاتٍ من الروح القدس آتية إليها من خلف العالم، من البراري

والقفار، لتُنعشها إلى مدى الأيام.

الآيات والمعجزات كانت محور الشهادة للمسيح (عصر الرسل):

لما حلَّ الروح القدس يوم الخمسين، دخلت الكنيسة في حالة نشاط روحي بلغ الدرجة القصوى من الملء، في كل موهبة إلهية، بقدر ما تحمَّلت الطبيعة البشرية، وبقدر ما استجابت لدفقات الروح وإلهاماته واستناراته؛ فكان كبداية لحمل رسالة البشارة والشهادة للرب يسوع إلى أقصى الأرض.

وكان محور الشهادة علامات ومعجزات وآيات تتبع المؤمنين، فائقة على الطبع البشري، كقوة مُضافة على الإنسان تشهد لنفسها وتشهد لمنبعها وأصلها:

+ «أيها الرجال الإسرائيليون، ما بالكم تتعجَّبون من هذا، ولماذا تشخصون إلينا، كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي؟ إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إله آبائنا، مجَّد فتاه يسوع... وبالإيمان باسمه، شدَّد اسمه هذا الذي تنظرونه وتعرفونه، والإيمان الذي بواسطته أعطاه هذه الصحة أمام جميعكم.» (أع ٣: ١٢-١٦)

ثم صارت البشارة بالإنجيل تتم في صورة مؤمن شهيد:

وهكذا ظلت الآيات والمعجزات محور الشهادة والتبشير، إلى أن حلَّ عصر الاستشهاد **وبدأت البشارة بالإنجيل والشهادة ليسوع المسيح تظهر بدون معجزة، كقوة أعلى من المعجزة، أعلى من روابط الأسرة، أعلى من محبة العالم وتهديده،** أعلى من الطبيعة البشرية والتزاماتها

وخوفها من الموت، وأعلى من كل الحياة التي على الأرض. فكان منظر إنسان مؤمن حديث الإيمان يستشهد علناً تحت أقسى أنواع التعذيب والموت، باسم يسوع، ومن أجل يسوع؛ هو أوضح تعبير عن معنى الإيمان بالمسيح وقوته، إذ كان بحد ذاته كفيلاً بأن يجعل الواقفين يؤمنون بالرب يسوع، بل إن الوالي نفسه والمعذِّبين كانوا كثيراً ما يرتعبون ويؤمنون. وهل يمكن لأي إنسان أن يتمالك نفسه إزاء منظر الأُم "دولاجي" وهي تُقدِّم أولادها السبعة الصغار للذبح، وتشجِّعهم على الاستشهاد، ثم تُقدِّم نفسها للسيف بعدهم حبًّا في المسيح؟!

الفرق بين الكرازة بالمعجزة والكرازة بالاستشهاد:

وهكذا فالاستشهاد برز كمحور آخر دارت عليه البشارة بالإنجيل، والشهادة للرب يسوع. لم تكن هذه القوة معجزة في حد ذاتها، لأنها لا تبدو منفصلة عن طبيعة الإنسان، كالمعجزة. فشفاء الأعرج وإقامة "طابيثا" من الموت مثلاً لم تكن قوة طبيعية في بطرس الرسول، ولكن كانت قوة آتية من خارجه، استحضرها القديس بطرس بالدعاء والتوسُّل والإيمان. أما الاستشهاد فهو قوة تعادِل المعجزة تماماً، ولكنه قوة متحدة بطبيعة الإنسان. والإنسان الشهيد يتقبَّل نفس قوة المعجزة، إنما في طبيعته لتكون قوة حاضرة فيه يشهد بها للحياة الأخرى، لا ليشفي بها مرض الآخرين بل عدم إيمانهم. هنا الشهيد يتقبَّل من الروح القدس قوة ومعجزة يُعلنها في نفسه كأنها صارت له ومنه، يُميت بها ذاته ليُحيي بها الآخرين، يوازن بها ــ أمام نفسه، وأمام الله، وأمام الحاضرين ــ بين أفضلية الموت للمسيح وبين الحياة بدون المسيح، شاهداً بهذا أنَّ: «لي

الحياة هي المسيح، والموت هو ربح.» (في ١:٢١)

الشهيد، بقوة شهادته، يُعلن عن إيمان تغلغل فيه، وعن قوة إلهية حيَّة اتحدت بطبيعته. هذه القوة تستعلِن قيمتها عند سفك الدم، عندما يسقط الجسد على الأرض؛ فتتجسَّم الشهادة، وتتحدَّد، وتُعلَن، وتُضاف لحساب الإنجيل، كقوة حياة إلهية متحدة بالطبيعة البشرية، يدفعها الموت بالصدق، كشهادة لا تكذب، وكأساس تنمو عليه الكنيسة وترتفع.

فإن كانت المعجزات والآيات في العصر الأول تُعتبر إنجيلاً مقروءاً من فوق الطبيعة البشرية، وبواسطتها؛ فالاستشهاد في العصر الذي يليه صار إنجيلاً مقروءاً في صميم الطبيعة البشرية، كفعل إلهي بشري فوق الطبيعة ومتحد بها.

❖ ❖ ❖

إذن، فالتدرج في الشهادة للمسيح والإنجيل والحياة الأبدية، سار في العالم بدقة مُدهشة:

أولاً: بقوة المعجزة كإقامة الميت حيًّا، لإظهار قوة الله في حد ذاتها، منفردة، كقوة أعلى من الموت وأعلى من الطبيعة البشرية.

ثم **ثانياً: بقوة الاستشهاد**، أي قبول الموت عن فرح وسرور، بسبب قبول قوة الحياة الأبدية الفاعلة في الطبيعة البشرية، كقوة تستطيع أن ترفع الطبيعة البشرية فوق ذاتها في لحظة واحدة، بإيمان منقطع النظير، كقوة تتوازن مع الموت ثم تقهره بشجاعة.

أما **ثالثاً: فهنا تنفتح الشهادة على المجال الرهباني**، الذي يأتي في

الدرجة الثالثة، للشهادة للمسيح والإنجيل والحياة الأبدية ضد العالم، وذلك **بقبول قوة من الله، بفعل الروح القدس للخروج من العالم شكلاً وموضوعاً**. أما شكلاً، فهذا معروف؛ وأما موضوعاً، فذلك بتحويل الطبيعة البشرية من الوضع الطبيعي ـ الميت بالخطية ـ إلى الوضع فوق الطبيعي ـ الحي بالنعمة ـ يوماً بيوم، ثم البقاء في هذا الوضع الفائق على الدوام ذبيحة حية، وشهادة أبدية للقوة الإلهية، التي استقبلها الإنسان في صميم طبيعته.

الحياة الرهبانية تتضمن القوتين معاً: المعجزة والاستشهاد:

فالحياة الرهبانية تشمل الفعلين السابقين للروح القدس: فعل المعجزة بإقامة الميت حيًّا، وفعل الاستشهاد الذي يرفع الطبيعة البشرية فوق ذاتها، ثم يزيد عليهما الروح القدس استمرار قيام الإنسان في حالة التحوُّل من الموت إلى الحياة كل يوم، مع بقاء تمسُّكه بالوضع الفائق للطبيعة.

فالراهب إنسان مسيحي قد مات، ولكنه قام ليعيش، شاهداً كل أيام حياته للقيامة الحقيقية.

وهو مُستقبِل في طبيعته الميتة فعلاً حيًّا فائقاً لطبيعته، الذي هو نسمة الحياة الأبدية. لذلك هو يستشهد كل يوم بفرح:

[وحينما كفَّ الاضطهاد، بعد أن تقبَّل بطرس خاتم الشهداء إكليله، غادر أنطونيوس الإسكندرية وعاد راجعاً إلى وحدته، حيث قدَّم نفسه كل يوم شهيداً إزاء ضميره، محارباً في معارك

الإيمان الخفية، إذ كان يمارس النسك بغيرة فائقة.][٣]

والراهب بذلك لا يمثِّل إلاَّ صورة أصيلة للإيمان الأول، كفعل حي للروح القدس، الذي بدأ يوم الخمسين كالنار، ثم عَبْرَ عصور الشهداء فتخضَّب بالدم، ثم استقر خلف العالم يوازنه ويشهد ضده.

✣ ✣ ✣

الرهبنة، إذن، هي آخر مرحلة من مراحل الشهادة للإيمان المسيحي الحار الملتهب، الذي استقر في الكنيسة بفعل الروح القدس. ليست الرهبنة إيماناً مسيحياً خاصاً، ولا درجة من درجات الكمال في الإيمان، وإنما هي صورة حيَّة للشهادة للإيمان المسيحي، تمثِّل أو تُعيد إلى الذهن بدء الانفعال للإيمان، لما حلَّ الروح القدس يوم الخمسين، حينما ترك كل إنسان كل ما له وأهله وبيته وانضم للرسل كوصية الرب أصلاً. وهي تمثِّل أيضاً، أو تُعيد إلى الذهن، الانفعال الإيماني للاستشهاد، حينما استلزمت الشهادة للمسيح حمل الصليب والموت علناً!

فالرهبنة حياة شهادة لإيمان حار، كصورة صادقة لإيمان الكنيسة الأولى وحياتها، فهي نموذج للحياة المسيحية الأصيلة، حسب الوصية تماماً، ليست نموذجاً أعلى وإنما نموذجاً صادقاً.

لذلك حينما نتكلَّم عن الرهبنة، فنحن نتكلَّم عن الحياة المسيحية الصادقة، وحينما نتكلَّم عن المسيحية الصادقة نتكلَّم عن الرهبنة، كنموذج لها، حي وموجود!!

---

(٣) J. Quasten, *Patrology*, III, Ch. 47.

يُطلب من:
دار مجلة مـــــرقس
القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من: مكتبة الدير
أو من خلال الموقع على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org

القديس أنبا مقار الكبير اللابس الروح
أب آباء برية شيهيت